إدوارد سعيد أو أخلاقية المعرفة

د. فيصل دراج

تتحدّد وظيفةُ المثقّف بمسؤوليّته الأخلاقيّة في الدفاع عن جملة قيم ومبادئ بوّابتُها الأولى: حرّيّةُ الإنسان، في مستوياتها كلّها. يدافع، بالمعنى البسيط، عن الحرّيّة والعدالة والكرامة الإنسانيّة، ويقاتل من أجل نزوع إنساني لم يتحقّقْ، أي أنّه يدافع عن مستقبل أفضل محتملٍ، فإنْ لازم التّشاؤمُ العقلَ، غدا المثقّفُ مدافعاً عن اليوتوبيا. وسواء اقترن العقلُ بالتّشاؤم، أم تخفّف منه، فإنّ وظيفة المثقّف تأكيد على تغيّر الأزمنة وتبدّلها وتأكيد على المستقبل، كزمن مختلف، وكفضاء تاريخي جديد يصوغه الكفاحُ الإنساني. وإذا كانت أجملُ الأزمنة هي التّي يبدو فيها حاضرُ السّلْب عارضاً ومستقبلُ الإيجاب قادماً، فإنّ أسوأ الأزمنة هي التي يبدو فيها المستقبلُ وكأنّه قد اندفن في الحاضر وسكن فيه؛ وينتهي التّاريخ، أو هكذا يبدو، فتنغلق نوافذه وينغلق فيه كلُّ أفقٍ محتمل.

ويمكن للزّمن الأوّل أن يعلن جماله في تفاؤل الإرادة، وفي تفاؤل عقل يرى العبد طليقاً. ولعلّ هذا التفاؤلَ المزدوجَ هو الّذي أطلق، في حقبة من هذا القرن توارتْ، أصواتَ غرامشي ورسل وسارتر وبيترفايس، حيث المثقّف مسؤول ـ أو هكذا يعتقد ـ عن جوع طفل إفريقي وحرمان عامل مستغَلّ واغتصاب حقوق إنسان ضعيف. وعلى نقيض الزّمن الأوّل، وعلى فراق معه، نعيش حاضراً صفته انحطاطٌ كونيٌّ شامل: إذ الاختلافُ مقهورٌ والتبايُن محاصرٌ والمستقبلُ كلمةٌ لا ضمانَ لها. ومع ذلك، فإنّ كلّ مركز، مهما اتّسع، لا يلغي هامشاً معارضاً له ومختلفاً عنه، يقرأ المركزَ ويردّ عليها بقولٍ هامشيٍّ مركزه

إدوارد سعيد في سطور

ـ ولد عام ١٩٣٥ في القدس. وكان أبوه رجلَ أعمالٍ محترماً.

ـ هربتْ عائلتهُ من فلسطين عام ٤٨/٤٧ إلى مصر، فالتحق بمدرسة «فيكتوريا كولدج» البريطانيّة، قبل أن يُرسَل إلى الولايات المتحدة لينهي دراسته الثّانوية في ولاية ماساشوستس.

ـ التحق بجامعة پرنستون، حيث دَرَسَ الإنكليزيّة والتّاريخ، وأُعجِب بـ «ريتشارد بلاكمور»، أحد أبرز «النقّاد الجدد».

ـ أنهى تمرّسه الأكاديمي في هارفرد، حيث درس الأدبَ المقارن على يد هاري لاڤين، وكتب أطروحة الدّكتوراه عن جوزيف كونراد.

ـ كتبَ مقالَه السياسيَّ الأوّل عقب أزمة السويس.

ـ تزوّج من سيّدة أمريكيّة، ثمّ انتهى زواجه منها بالطّلاق. وعاد فتزوّج ثانية من اللّبنانيّة مريم قرطاس.

ـ انضمّ إلى المجلس الوطني الفلسطيني عام ١٩٧٧، وهو عام صدور كتابه الهامّ مسألة فلسطين.

ـ ترجم إلى الإنكليزيّة الخطابَ الّذي ألقاه رئيس منظمة التحرير السيّد ياسر عرفات أمام الجمعيّة العامّة للأمم المتحدة في ١٣ تشرين الثّاني ١٩٧٤، وذلك قبل عشرة أيّام من حصول منظّمة التّحرير الفلسطينيّة على منصب «مراقب» في الجمعيّة العامّة.

ـ ترجم إلى الإنكليزيّة «إعلان استقلال دولة فلسطين» عام ١٩٨٨.

ـ وَضَعَتْه «الرّابطة اليهوديّة المعادية للتشهير بإسرائيل» (The Jewish Anti - Defamation League) على لائحة «كبار المروّجين للتأييد العربي في صفوف الطلّاب، والأساتذة الجامعيّين» في الولايات المتحدة. ووصفه Edward Alexander بـ «أستاذ الإرهاب».

وتعرّض مكتبه لعمليّات تخريب متعمّدة.

ـ دعا منذ أواسط السّبعينات إلى دولتين:

الحقيقة. وإلى هذا الهامش النيّر، لاتزال تنتمي أصوات كبيرة مثل تشومسكي وهابرماس وفريدريك جيمسون. وإليه ينتمي أيضاً: إدوارد سعيد.

مسار إدوارد سعيد مفارقة جديرة بالتأمُّل: فهو ناقد أدبيّ مختصٌّ يندّد بالاختصاص المريض؛ وهو فلسطيني ـ أمريكي يندّد بالمنظور الأميركي للقضيّة الفلسطينيّة، سواء جاء المنظورُ من مسؤول في وزارة الخارجيّة، أم جاء من مسؤول فلسطيني لا يعرف عن المسؤول الأوّل شيئاً؛ وهو مثقّف أكاديمي، ينحّي الأكاديميّة جانباً، ويعيد تسييس الأمور بشكل صحيح. وقد يتّكئ «سعيد» على فلسطينيّته ويدافع عادلاً عن القضيّة الفلسطينيّة، غير أنَّ دفاعه يبدأ بالموضوعيّة قبل أن يبدأ من فلسطين؛ ذلك أنَّه في بحثه النظريّ لا يرجع السّياسة إلى بلاغة وعلم جمال فقير، بل يضع البلاغة في حقل السّياسة ويسيّس العلاقات الجماليّة. وفي هذه الحدود يقيم إدوارد فرقاً بينه وبين مثقّف الاختصاص، الذي يغلق النّصّ وينغلق فيه، حتّى ينطفئ الواقعُ ويتهاوى التّاريخُ. كما أنَّهُ يفرض مسافة بينه وبين «أكاديمي» فلسطيني مأخوذ بـ «الواقع» و«السياسة الواقعيّة»، وغافل عن معطيات الواقع ودروس التّاريخ. والفرق لا يصدر عن «منهج أكاديمي» مختلف أو عن اختلاف في «الموقع والمسؤوليّة»، وإنّما يصدر عن الفرق بين التّجريد اللامحدود والتجريد المفهومي الموحّد؛ وبمعنى ما، بين المجرَّد والمشخَّص. يقول إدوارد في دراسة له عنوانها «معارضون.. جماهير، دوائر وجماعات» ما يلي:

> بكلام عامّ جدّاً، إذن، يعني عدمُ التدخُّل بالنسبة للاختصاص في العلوم الإنسانيّة. دعه يعمل (Laissez faire). فلهم «هم» أن يديروا البلادَ وأنّا نحنُ فسنُطنبُ في شرح وردسورث (Wordsworth) وشليغل (Schlegel). إنّنا لا نحط الأشياء كثيراً حين نقول إنَّ عدم التدخُّلَ والتخصُّصَ الجامد في الأكاديميّة مرتبطان ارتباطاً مباشراً بما تمَّتْ تسميته بالهجوم المعاكس من قبل «نخبة تجاريّة من رجال الأعمال على درجة عالية من التعبئة» كردّ فعل على الفترة السابقة (ما قبل ريغان) مباشرة حيثُ كانت الحاجات القوميّة تُعتبر ملبّاةً عن طريق موارد خُصِّصتْ بطريقةٍ جماعيّة وبطريقة ديموقراطيّة. غير أنَّ العمل من خلال المؤسّسات ومراكز البحث والفروع الأكاديميّة والحكومة وأوساط النخبة التّابعة للشركات. قد أعلن عصراً جديداً للعقل ترافق مع تشويش الواقع وتعميته[1].

ينتقد سعيد صنميّة الاختصاص القائمة على ديالكتيك زائف قوامه رفع المعرفة وإلغاء العارف، إذ تبدو المعرفة حقلاً مغلقاً ومستقلاً في انغلاقه، ويبدو العارف سيِّداً في حقله المستقلّ المغلق؛ أيْ يبدو مختصّاً بعلاقات الكتابة ومختصّاً باحترام قواعد الاختصاص كأنَّ العارفَ نموذجٌ إنسانيّ من نوعٍ خاصّ لا علاقة له بالنماذج البشريّة الأخرى. ولذلك يقول إدوارد:

> إنّنا بحاجة إلى التفكير بالإفلات من الغيتوات المدرسيّة التي سُجِنّا فيها كمثقّفين. ويتمُّ ذلك الإفلات بإعادة إطلاق السيرورات الاجتماعيّة

(١) مجلّة **قضايا وشهادات**، الكتاب الثالث «الحداثة» دار عيبال، قبرص، ١٩٩١، ص ٣٦١ ـ ٣٦٢.

إسرائيليّة وفلسطينيّة. وعام ١٩٨٣ دعا المجلس الوطني الفلسطيني إلى تبنّي مشروع مقاومة مدنيّة جماهيريّة بديلاً عن العنف المسلّح.

ـ اتّهم منظّمة التّحرير بأنّها لا تعرف السّياقَ الأمريكي، واتّهم ممثّليها بالفساد وعدم الأهليّة وبالاعتماد على وسطاء وسماسرة أمريكيّين لشرح قضيّتهم بدلاً من مؤسّسات المجتمع المدني الأمريكي.

ـ استقال عام ١٩٩١ من المجلس الوطني الفلسطيني.

ـ دان التّدخل العسكري الأمريكي في حرب الخليج. وكان قبلها قد دان التّدخُّل العراقي في الكويت.

ـ شجب اتفاق غزّة/ أريحا بين منظّمة التّحرير الفلسطينيّة ودولة إسرائيل، ورفض حضورَ حفلة التوقيع في «البيت الأبيض».

ـ يدرّس الأدب الإنكليزي والأدب المقارن في جامعة كولومبيا في نيويورك منذ ما يقارب الثّلاثين عاماً.

ـ أحيا العامَ الماضي حفلتيْن موسيقيّتين في واشنطن ونيويورك، بالاشتراك مع ديانا تقي الدّين.

ـ يتكلّم الإنكليزيّة والعربيّة والفرنسيّة بطلاقة. وهو على دراية واسعة بالإسبانيّة والألمانيّة والإيطاليّة واللاّتينيّة.

ـ اكتشف مؤخّراً إصابته بسرطان الدم (اللوكيميا)، لكنّ صحّته جيّدة ومعنويّاته مرتفعة ونشاطه على صخبه.

ـ أعماله: **جوزيف كونراد ورواية السّيرة الذّاتيّة (١٩٧٦)**، وهي أطروحة الدّكتوراه.

بدايات: النّيّة والمنهج (١٩٧٥).

الاستشراق (١٩٧٨). وقد ترجمه د. كمال أبو ديب إلى العربيّة، وصدر عن مؤسّسة الأبحاث العربيّة.

مسألة فلسطين (١٩٧٩).

تغطية الإسلام: كيف يُقرّر الخبراء ووسائل الإعلام رؤيتنا لبقيّة أرجاء العالم (١٩٨١)، وقد ترجمته سميرة خوري إلى العربيّة، وصدر عن مؤسسة الأبحاث العربيّة.

العالم، النّصّ، النّاقد (١٩٨٣). وقد فاز هذا الكتاب بجائزة «رينيه ويليك» الخاصّة بالجمعيّة الأمريكيّة للأدب المقارن.

ما وراء السّماء الأخيرة: حَيَواتُ الفلسطينيّين (١٩٨٦).

لومُ الضّحايا: الأكاديميا الزّائفة ومسألة فلسطين (١٩٨٨) وهو كتاب أشرف عليه بالاشتراك مع كريستوفر هيتشنز ويضمّ ثلاثة مقالات لسعيد إلى جانب كتّاب آخرين.

توسيعات موسيقيّة (١٩٩١).

السّلام في الشّرق الأوسط (١٩٩١).

الثّقافة والإمبرياليّة (١٩٩٢). ويقوم د. كمال أبو ديب بتعريبه، ويصدر عن دار الآداب قريباً

التي تتخلّى عن التمثيل الموضوعي للعالم (وتتخلّى بالتالي عن السلطة) لصالح شلّة صغيرة من الخبراء وعملائهم. فجمهور الأدب والقرّاء ليس دائرة مغلقة ومؤلّفة من ثلاثة آلاف ناقد محترف، بل من مجموع الكائنات البشريّة التي تعيش في المجتمع. [وينبغي] معاينة الواقع الاجتماعي بأسلوب علماني لا بأسلوب صوفي باطني، على الرّغم من جميع الاحتجاجات بشأن الواقعيّة والموضوعيّة[٢]

«سعيد» ناقد أدبيّ مختصّ يندِّد بالاختصاص المريض.. وهو فلسطيني/ أمريكي يندِّد بالمنظور الأمريكي للقضيّة الفلسطينيّة، سواء جاء المنظور من مسؤول في وزارة الخارجيّة الأمريكيّة، أم جاء من مسؤول فلسطيني لا يعرف عن المسؤول الأوّل شيئاً!

يعيد سعيد، في قوله هذا، الاعتبار إلى المثقّف الحديث بالمعنى التّاريخي للكلمة، فتكون الثّقافة شأناً عامّاً ونقداً لِمَا يُرجع الثّقافة إلى احتكارٍ صغير يمتثل إلى احتكار أكثر اتّساعاً ونفوذاً. ولا ينطلق سعيد، في هذا، من تأمّل مجرّد لوضع المثقّف المجرّد، بل يصل إلى ما يصل إليه عن طريق مراقبة عمليّة لوضع الثّقافة في المجتمع الأميركي. فالمؤسَّساتيّة، المحدَّدَة سياسيّاً وايديولوجيّاً واقتصاديّاً، هي الّتي تحدّد إنتاج الثّقافة وإعادة إنتاجها، وفقاً لمنطقٍ مزدوجٍ ومترابط، يبرّر السّياسات الخارجيّة والداخليّة من ناحية ويسهم في خلق «قارئ عام» يقبل بهذه السياسات كحقيقة كاملة من ناحية ثانية. فالثّقافة الأميركيّة في شكلها المسيطر تصنع مثقّفاً يسهم في إلغاء العقل وصناعة الإذعان، بل يلغي العقلَ المجتمعي لصالح عقل نخبوي يرى المردود المالي ولا يرى البشر. ولقد حقّقت هذه الثّقافة، بعملها ذاك، العبوديّةَ الأكثرَ حذقاً ومهارة في التّاريخ لأنّها تجعل الفرد يتقبّل عبوديّته راضياً. وحين يتوقّف تشومسكي أمام الثّقافة الأميركيّة «الموحَّدَة فرحاً» بسقوط النظام الساندينيّ في نيكاراغوا فإنّه يكتب الكلمات التالية: «من البداية إلى النهاية، نرى بقدر كبير من الوضوح صورةَ ثقافةٍ سياسيّة شديدةِ الانضباط مفعمة حتّى النخاع بفيض من القيم التوتاليتاريّة»[٣]. وقد تبدو الصفة الأخيرة، أي الشموليّة، غريبة في انتسابها إلى نظام أمريكي أقام، بنجاح لا نقص فيه، علاقةَ بداهة بين الشيوعيّة والتوتاليتاريّة. والواقع أنّ النظام الأميركي آية هذه الشموليّة ومرآة لها؛ مع فرق جوهري: فالشيوعيّة التي قَضَتْ مارست الاستبدادَ بأدوات بدائيّة وساذجة، بينما يرفع النظامُ الأمريكي إتلاف الشخصيّة الإنسانيّة إلى مقام العلم الدقيق. ولعلّ صناعة الإذعان المكتملة هي التي ولدت أُسطورةَ الوحش الأمريكي الجميل، الذي يفتح فماً جشعاً بأسنان ذهبيّة، وتجيء الضحايا إليه قبل أن يذهب إليها. ويتابع تشومسكي وصفه للسّياسة الثّقافيّة الأمريكيّة فيقول:

إنّ المحاولات كلّها سوف تبذل من أجل تفريغ عامّة السكّان والناس من الثقافة (ومن أجل غسل الأدمغة) وصولاً إلى إغراق هؤلاء الناس في وحل المستوى الذهني والأخلاقي لأولياء الأمور في سائر الميادين الثقافيّة والاجتماعيّة. وتنتصب أمام أولئك الذين لا يستسلمون رسالة تاريخيّة: عليهم ألّا يَنْسَوْا هذه الحقيقة[٤].

* * *

يلتقي ما يقوله إدوارد سعيد عن «إعادة إطلاق السيرورات الاجتماعيّة» مع «الرّسالة التّاريخيّة» المقاومة التي يدعو إليها تشومسكي. ودفاعاً عن هذه الرّسالة يمارس إدوارد سعيد، في كتاباته الأخيرة، الثّقافةَ خارجَ المؤسَّسة؛ فتكون الثّقافة نقداً ومنظوراً نقديّاً ثنائيَ البعد، تميّز الموضوعيّ من البراجماتي، وتفصل بين مثقّف المؤسَّسة ومثقّف «السيرورات الاجتماعيّة». وتتضح في هذا الموقف حداثةُ الثّقافة، أي بُعدها المستقبلي، لا بمعنى ثقافة متعالية حاضرة يُفصح المستقبل عن دلالاتها (أدونيس)، بل بمعنى نقد المسلّمات الثقافيّة الرّاهنة من أجل أطروحاتٍ ثقافيّة جديدة تعيد إلى «القارئ العام» اعتباره، وتجعله قادراً على تلمُّس الفرق بين كلمات الوحش الجميل وأفعاله.

يقدِّم إدوارد سعيد في كتاب **لوم الضحايا** صورةً عن لاأخلاقيّة الثّقافة الأميركيّة كما تتجلّى في إنتاج صورة الإنسان الفلسطينيّ، إذ الأخير خَلْقٌ ايديولوجي محض أوجدته إيديولوجيا لا تعترف بالوجود الفلسطيني الموضوعي أبداً. وقد كتب سعيد في الكتاب المذكور، وهو مؤلّف جماعيّ، مقالاتٍ ثلاثاً بالإضافة إلى التقديم الذي وضعه. نقرأ في التقديم الصورتين الصهيونيّة والفلسطينيّة، كما تصوغهما صناعةُ الرأي العام. غير أنّنا نقرأ أوّلاً سلطة صناعة التزوير التي تعطي التزويرَ شكلَ البداهة. يشكّل الصهيوني والفلسطينيُّ ـ حسب هذه الصناعة ـ وحدةً متناقضة آيتُها وحدةُ الشرّ والخير، فلا يوجد أحدُهُما من دون الآخر، ولا يوجد أحدهما إلّا كنقيض للآخر. يحيل الصهيوني على الخير؛ غير أنّ هذه الإحالة الخيّرة تحيل، في حقيقة الأمر، على الخير المحايث للذّات الغربيّة. فهذه الذّات، في تعاملها مع الصهيوني، تتعامل مع ذاتٍ «مثلها»؛ وفي تمجيدها له تمجّد ذاتها، وانتصاره انتصار لها، أو امتداد لانتصاراتها المتعاقبة. تنبثق صورة الصّهيوني من إيديولوجيا المركزيّة ـ الأوروبيّة، التي بَنَتْ ذاتَها على هدم ذات الآخر

(٢) المرجع السابق، ص ٣٦٤

(٣) نعوم تشومسكي، ردع الديمقراطيّة، دار عيبال للنّشر، قبرص، ١٩٩٢، ص ٣٠٨.

(٤) المرجع السابق، ص ٣٢٥.

اللاأوروبي. بل إنَّ الإيديولوجيا الإعلاميّة الصهيونيّة أو المتصهينة لا تحقّق فاعليّتَها إلاَّ في عمليّة بناء الصّورة الصهيونيّة بموادَّ الموروث الإيديولوجي الكولونياليّ ـ العنصري الكلاسيكي، حيث يرى «الغربيُّ» في صورة الصهيوني، الباني لدولة إسرائيل، صورتَه الماضيةَ والحاضرةَ. فبين الغربي والآخر العربي فرقٌ واختلافٌ، وانتصارُ الصهيوني على العربي تأكيدٌ للاختلاف وتوليدٌ جديدٌ له. ولهذا يصبح الصهيوني، في سلطة صناعة الرأي العامّ، أسطورةً هي في جوهرها استعادةٌ لأُسطورَةِ الإنسان الأبيض وهو يكتشف الأراضي الجديدة: فالصهيوني هو الخيّر والصّادقُ والجميل ومرآة للمستوطن الأبيض، يزرع الحضارة في أرض بور مكتشفة لم تعرف معنى الحضارة. وهكذا فالصهيوني تجسيد جديد فوق أرض فلسطين لطهرانيّة أمريكيّة ترتدّ إلى القرن التاسع عشر زرعت الحضارة يوماً في أرض الهنود التي لم تعرف الحضارة!

تحوّل إيديولوجيّةُ التزوير الصهيونيَّ إلى أسطورة الإيجاب. غير أنَّ هذه الأسطورة في علاقتها بنقيضها لا تستوي إلاَّ إنْ حَوّلت الفلسطيني إلى أسطورة أخرى تمثّلُ نفياً للأسطورة الأولى. ولهذا يتمّ اختزالُ الفلسطيني إلى نماذج جاهزة محدودة العدد: فهو المسلم المأفون الهائج المأخوذ بعنف مجاني يحصد الأبرياء، وهو اللاعقلاني الذي لا شفاء له، وهو المتوحّش والبدائي (ص ٣). تَصدر صورةُ الفلسطيني ـ كما يُظْهر إدوارد سعيد ـ عن صورة الصهيوني، وتنبثق صورةُ الأخير من سلطة الإعلام. وفي الحالين فإنّ الوقائع والتّاريخ والحقائق لا ضرورة لها: فالصّهيوني خَيْر والفلسطيني المناهض له شرّ، بل إنَّ الفلسطيني معاد للمعايير الأميركيّة لأنّه مُعادٍ للواقع الصّهيوني. ولذلك تقع على الفلسطيني الصّفاتُ الأمريكيّةُ الجاهزة والمسيطرة: فهو إرهابي، شيوعي، وفي النّهاية فإنه معادٍ للسامية. وهكذا يتحوّل الفلسطيني إلى ضحيّة من نوع خاصّ: ضحيّة لا تستحقّ التعاطف لأنّها مجهولةُ التّاريخ، ولا يودّ أحدٌ أنْ يتعرّف على هذا التّاريخ. وهكذا أيضاً يُنتج ضياعُ تاريخ الضحيّة خصوصيّتها؛ فإذا بها ضحيّة تُلام على مصائبها وتُلام على المصائب التي تنزل بالغير أيضاً. وضحيّة كهذه علاجُها الموتُ؛ شرٌّ هي، وشرُّها فيها، وشرُّها الدّاخلي جعلها ضحيّةً لا تاريخ لها؛ والخير يقضي بإتلاف الشرّ وهزيمته.

يكشف لوم الضحيّة الغريبة ـ كما يظهره إدوارد سعيد ـ عن ايديولوجيا الاكتشاف الكولونياليّة الملازمة للإيديولوجيا الأمريكيّة المسيطرة. فحسب هذه الإيديولوجيا فإنَّ فلسطين العربيّة لا وجود لها: لأنَّ ما يحمل صفة الوجود هي فلسطين التي «اكتشفها» الصهاينة؛ والإيديولوجيا التي تزوِّر معنى الاكتشاف تتعامل فقط مع الاكتشاف المزوَّر لفلسطين. يكتب إدوارد غاليانو في مقالة له عنوانها: «اكتشاف أمريكا الذي لم يقع حتى الآن» السطورَ التالية: «نقول إنّه في عام ١٤٩٢ تمّ غزوُ أمريكا، لا اكتشافها، لأنَّ الهنود الذين كانوا يعيشون

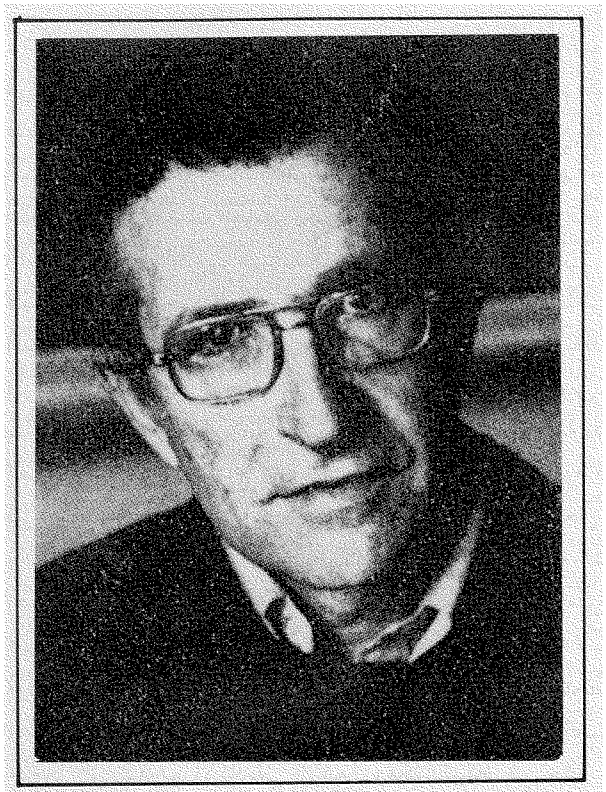

تشومسكي: المثقف خارج المؤسسة

فيها ذلك الزّمانَ اكتشفوها قبل ذلك الزّمن بملايين السنين»(٥). تحدّد إيديولوجيا الاكتشاف ميلادَ «المكتَشف» بلحظة «اكتشافه» فتلغي تاريخه وتختزله إلى تاريخ المنتصر الذي حقق الاكتشاف. وكما تلغي هذه الإيديولوجيا التّاريخ فإنّها تنكر ما تكوّن وتحقّق في هذا التّاريخ؛ ولذلك فإنَّ «مسيحيّة الاكتشاف» اعتبرت أديانَ الهنود وثنيّةً وهرطقةً واختزلتْ ثقافة مجتمع بأكمله إلى جهل محض. واعتماداً على هذا القياس تعاملت صناعةُ الرأي العام في أمريكا مع القضيّة الفلسطينيّة: ففلسطين العرب لا وجود لها، وكلّ ما وجد فيها جهل وهرطقة لا مكان لهما في معايير الحضارة.

بعد أن يكشف إدوارد في تقديم **لوم الضحايا** عن منطق التزوير في الإعلام الأمريكي يعمد في دراسة لاحقة إلى معاينة حالة خاصة من حالات التزوير. وتحمل الدراسة عنوان: «مؤامرة المديح» وموضوعها كتاب عنوانه: **منذ زمن سحيق (From Times Immemorial)** لكاتبته جون بيترز. يعالج الكتاب، كما يُظهر عنوانه الفرعي، جذورَ الصّراع العربي اليهودي على فلسطين، ويسعى إلى تأكيد الزعم التالي: ليس الفلسطينيّون أكثر من دعاية محضة؛ فهم جمع لمحصّلة من العرب جاءوا إلى فلسطين بين عامي ١٩٤٦ و١٩٤٨ كمهاجرين عرب، بشكل

(٥) Eduardo Galeano, **Amérique: La découverte qui n'a pas encore eu lieu** Messidor, Paris 1991, p: 13.

←

لاشرعي، وقد جذبهم رخاءُ المستوطنات اليهوديّة علّهم يجدون عملاً في هذا الرّخاء أو في ما هو منه قريب، وما عدا ذلك لم يكن في فلسطين من العرب إلاّ مجموعة من البدو الرّحل لا موقع لهم ولا استقرار. واعتمدت الكاتبة على الدّعاية الصهيونيّة بوصفها حقائقَ علميّة دقيقة، بعد أنْ طعّمتها بجملة من الاقتباسات والأرقام، يتمّ التحايلُ عليها والتزوير فيها بما تقتضي به الدعايةُ الصهيونيّةُ. وفي هذا الكتاب لا وجود للمدن الفلسطينيّة ولا للإنسان الذي سكن هذه المدن وشيّدها؛ فالفلسطيني هو هندي آخر، لا تاريخ له ولا ثقافة؛ بل إنَّ تاريخه ينتهي في اللّحظة التي يصله فيها المكتشفُ الصهيونيّ مزوَّداً بتاريخ ينفي ما عداه. ومع ذلك فالقضيّة ليست هنا ـ فآلة الإعلام الصهيوني قادرة على إنتاج عددٍ لامتناهٍ من الكتب ـ وإنّما تقوم القضيّة في لاأخلاقيّة مطلقة وبؤس روحيٍّ مطلقٍ السّراح وابتذالٍ لمعنى العلم والبحث العلمي. فهذا الكتاب (كتاب بيترز) الّذي يرفع التزويرَ الصهيوني إلى مستوى المرجع العلميّ الرّفيع قد لقي حماساً مفرطاً في حرارته من الأوساط العلميّة والصهيونيّة، فحصل على ٢٠٠ ـ ٣٠٠ مراجعة، تكيل له الثناء، في الأوساط المتخصّصة وغير المتخصّصة، وظفر بجائزة تقدير صهيونيّة. . هذا، إنْ لم تكن الجائزة الضروريّة مدخلاً إلى التقويم الأكاديمي الرّفيع! وهكذا تسقط في حلبة الثّقافة الأمريكيّة ثنائيّةُ العلم والإيديولوجيا بمعناها النبيل لتترك العلمَ السّياسيّ منزوياً في غرفٍ معتمة ضيّقة تنتهك التّاريخ وتنكر قواعد العلوم، محوّلة السّلطةَ الإعلاميّة المزوّرة إلى مرجع للبحث والفكر والنّقد. وفي مواجهة الـ ٢٠٠ ـ ٣٠٠ مراجعة إيجابيّة لم يجد كتاب بيترز من يتصدّى له، علمياً، إلاّ نورمن فنكلستين وبيل فاريل، وهما من الأسماء التي تعيش في الظلّ، علماً أنَّ الكتاب المذكور ـ ووفقاً لمراجعة ألبرت حوراني، التي ظهرت في **الأوبزرفر** (٥ آذار ١٩٨٤) ـ بعيدٌ كلّ البعد عن الرّوح العلميّة: فهو لا يحترم الاقتباس، ويتلاعب بالأرقام، ويأخذ بمعلومات لا أساس لها من الصحّة.

وكي تكتمل الصّورة عن موضوعيّة البحث «السّياسي» في الولايات المتحدة يشير إدوارد سعيد إلى أمرين: التحالف اللاأخلاقي بين المعرفة والسّياسة؛ فالكتاب المذكور يقدّم افتراضاً مداخلةً نظريّة تضيء جوانب الصّراع العربي اليهودي وتومئ ولو من بعيد إلى حلول مقترحة؛ والحل المقترح، الذي يقدّمه الكتاب، واضح في آثاره، لا بمعنى الزّور الذي يعتصب الحقيقة، بل بمعنى الاستقبال الكبير الذي حظي به كتابٌ جوهرُهُ الأكاذيبُ الكبيرة. ويشير الأمر الآخر إلى الوعيد الذي تمارسه المنظّماتُ الصهيونيّةُ ضدّ أيّ باحث يفضح الوقائعَ الصهيونيّة إلى درجة يصبح فيها نقدُ الحصارِ الصهيوني لبيروت في عام ١٩٨٢ شكلاً من أشكال معاداة السامية. فالممارسة الأمريكيّة الصهيونيّة كما الممارسة الصهيونيّة في أمريكا تؤكّد حقيقةً واحدة تقول: إن كانت إسرائيل خيراً فلا يمكن أن يصدر عنها إلاّ الخيْر؛ ولأنّها كذلك فإنَّ كلّ نقد لها هو شكل من أشكال الشرّ، ومقترِف الشرّ جديرٌ بالعقاب.

حين كانت الولايات المتحدة تمطر حقولَ ڤيتنام بوابل من القنابل كان فِعْلُها، كما يصفه سارتر، لاأخلاقيّة مطلقة. وعندما راقب تشومسكي جرائمَ الولايات المتحدة في نيكاراغوا، أضاف إلى اللاأخلاقيّة صفةَ الوحل والوضاعة. ولمّا تأمّل إدوارد سعيد الطّريقةَ التي يتمّ التعاملُ فيها مع كتاب وضيع، أعاد كتابة الصّفات السابقة على طريقته. وهكذا ينهي إدوارد مقالته: «مؤامرة المديح» بالسّطور التالية، التي تظهر واقعَ الثقافة الأمريكيّة الرسميّة وموقفَ إدوارد منها:

> لا أتحدّث هنا كفلسطيني يريد أنْ يظلّ يعلن «ولكنّنا موجودون، لقد كنّا موجودين على الدوام وسنبقى»، بقدر ما أتحدّثُ كمثقّف أمريكي لطّخه عارُ الزيف الذي لحق بالوضع الحالي لما يُعرف بحياتنا العقليّة فمشكلة بيترز ليستْ مشكلةَ كتابٍ هزيل فحسب، بل إنّها مسألةُ تواطؤ مدروس ومنسّق استهدف إلغاءَ تاريخ شعب بأكمله وواقع بأكمله من الوجود أين هم أولئك الأوصياءُ على الأخلاق الثقافيّة ـ الفكريّة الذين ينتحبون عواءً، في كورس يقوده أمثال كونور كروز أوبرايان وليشيك كولاكوفسكي، إزاء قيام الشيوعيّة وبلدان العالم الثالث بتشويه المعلومات ونشر الدعايات المضلّلة؟ أين أولئك الذين يدافعون بعنادٍ شديدٍ عن حريّة التعبير وسلامة الحوار في أمريكا، ممّن يستحضرون أورويل ويلعنون الشموليّة (التوتاليتاريّة)؟ هل وصلت الأمور، إذن، إلى حدِّ تبنّي إيديولوجيا لاشعوريّة تتيح لأكثر الأكاذيب فضائحيّةً وإثارةً للقرف ـ لأكاذيب كُتِبتْ لعناتٍ بلا أيّ نسقٍ أو نظام، ويجري تأكيدها بصورة هستيريّة ـ فرصةَ الرّواج كما لو كانت بحوثاً أصيلة، حقائقَ واقعيّةً، رؤى سياسيّةً نافذةً، بدون أن يواجهها أيّ تحدٍّ ذي شأن، أيّ اعتراض، أو حتّى أيّ تحفُّظٍ مهذّب؟
>
> تكمن الحقيقةُ المحزنة في أنَّ الولايات المتحدة تبقى، حيثما تكون إسرائيل موضوعَ المناقشة، دون إسرائيل نفسها بكثير من حيث الالتزام بمعايير الحقيقة ومناهج الحوار السليمة لذا فإنّنا نجد أنفسنا أمام تجسيدٍ كاملٍ لـ «أسلوبَ جنون البارانويا» في الحياة السياسيّة الأمريكيّة حسب تعبير ريتشارد هوفستيدر. وممّا يبعث على الأسى أنَّ اليسار ليس أفضل حالاً من اليمين في هذا الميدان فالتقدميّون الشباب الذين يصدرون التاريخ الثوري Radical History يتعمّدون، وبضمائر مرتاحة، تحاشي موضوع الفلسطينيّين وأمّا العارفون ببواطن الأمور فيتولّى اللوبي الإسرائيلي مهمّةَ زرع الخوف في قلوبهم صحيح أنَّ لجنة العمل السياسي الأمريكيّة ـ الإسرائيليّة (ل ع أ.إ) تعرَّضت للانتقاد من الصحافة على الحملات المنظّمة التي جرّدتها في الجامعات ضدّ من تجرّأوا على انتقاد إسرائيل علناً أو على تأييد الحقوق الفلسطينيّة في الجامعات. ولكن السؤال الباقي هو: ما هو عددُ العمداء وأساتذة الكلّيات الذين رفعوا أصواتهم احتجاجاً على الرقابة وعمليات الابتزاز التي تفرضها ل.ع.أ إ على «الأعداء» في الجامعات على طول البلاد وعرضها؟
>
> ليست قراءة كتابات بيترز ومؤيّديها، بالنسبة للفلسطينيّين، إلاّ وقوفاً على عمليّة مطوّلة من عمليّات ممارسة إبادة الجنس أو النوع على أيدي باحثين زائفين يشارك توم سوير في جنازته هو كنوع من الدعابة، وأمّا نحن فنتعرّض للتهديد بالموت قبل أن تُتاح لنا فرصة الولادة، ثمّ يُقال لنا إنَّ علينا أن نبقى خارجَ الدائرة كلّها! والمفارقة

سعيد «ليس عندنا مانديلا مع الأسف».

> السّاخرة ـ التي تكمن في حدوث هذا في الولايات المتحدة في الوقت الذي يجري فيه إطلاقُ الكثير من التصريحات عن السلام في الشرق الأوسط مصحوبةً بما يحيط بها من تحرُّكات أمريكيّة وإسرائيليّة تستهدف استبعاد الفلسطينيّين ـ هي مفارقةٌ لا يصعب التعرُّف عليها وبهذه الطريقة ـ الديموقراطيّة جداً ـ يقوم المثقّفون والدولة بتنسيق الجهود الرامية إلى دفع أحدِ الشعوبِ الصغيرةِ في هذا العالم إلى ما تحت الحصيرة
>
> إن الامر الذي مازلتُ عاجزاً عن إدراكه هو. كيف يمكن للناس أن يكونوا حمقى إلى الدرجة التي يصدّقون فيها مزاعمَ كتاب «منذ زمن سحيق» في أنّ الفلسطينيّين ليسوا إلاّ من صنع الخيال، شأنهم في ذلك شأن أحادي القرن أو الجنيّة ذات الأنياب الزرقاء؟ ما الذي يجعل باربارا توتشمان وشاول بيلو، مثلاً، يتوقّعان منّا نحن الملايين الأربعة المبعثرين في الأماكن كلّها أن نكرّر كذبة وجودنا طوال خمس وثلاثين سنة؟ هل يتصوّران، مع غيرهما، أنّنا، جميعاً، نتلقّى توجيهاتٍ محدّدةً من مكتب مركزي للدعاية؟ ولعلّ السؤال الأصعب هو كيف استطعنا، كما تضمر بيترز، أن نوحّد أكثريّة الجماعات العربيّة والإسلاميّة والعالم ثالثيّة والأوروبيّة والاشتراكيّة في الوقوف مع قضيّتنا، لو كُنّا مجرّدَ أسطورة؟ مِنَ المؤكّد أنّ مجرّد الحصول على دولة فلسطينيّة سيكون أهون من ذلك بما لا يُقاس![٦]

في واقع كهذا تصبح اللاأخلاقيّة مرجعاً يحدد الثقافةَ والسياسةَ، وتصبح فلسفةُ القوّة مسوّغاً للاأخلاقيّة في الحقول كلّها. ولمّا كان من المتوجب على اللاأخلاقيّة أن تلبس وجهاً أخلاقيّاً، فإنّه يتعيّن على فلسفة القوّة إعادة تعريف المفاهيم والمصطلحات. هنا يظهر الاستعمالُ الأمريكيّ الرّائج لمعنى الديمقراطيّة والديكتاتوريّة، ودلالات الحرّيّة والاستبداد؛ وهو استعمالٌ غريبٌ يجعل اللّغةَ مرآةً لميزان القوى: فالقويّ يحقّ له الكذبُ محصّناً بذراع تردع من يفضحه، والضّعيف لا يقول إلّا كذباً لأنّ ذراعه رخوةٌ وبالغّة الهشاشة. تتحوّل المصطلحاتُ إلى مجرّدات ميتافيزيقيّة كما يقول إدوارد سعيد: فهي كلمات عائمة تحدّد معناها القوّةُ التي تستعملها. ويحاكم سعيد في مقالة ثالثة عنوانها «الإرهابي النموذجي» (The Essential Terrorist) معنى الإرهاب في الإيديولوجيا الأمريكيّة، حيث غسلُ العقل اليوميّ ينشر استبدادَ البداهة، فتتساوى الوقائعُ والكلمات. يصبح الأرهابيّ هو ذاك الذي تسبغ عليه اللّغةُ الأمريكيّةُ صفةَ الاستبداد: فهو العربيّ، الفلسطينيّ، المسلم، اللّيبي... والوصف اللّغوي يتحوّل إلى تعامل عملي، بل إنّ هذا الوصف سابق للأثر التطبيقي الذي فرضه. إنّ اللّغة عقابٌ أو تمهيدٌ للعقاب، فالإرهاب ترويع لا ينبغي السّكوت عليه. وهو إرهاب يحدّد معناه الطّرفُ الذي يردعه. وبهذا المعنى فإنّ الدّفاع عن الكرامة الوطنيّة، شأنه في ذلك شأن حقّ الضعيف في المقاومة، شكلٌ من الإرهاب؛ كما أنّ الكفاح المسلّح ـ وهو حقّ مشروع كوني للشعوب المقموعة ـ شكلٌ آخر من الإرهاب؛ بل إنّ الحديث عن التحرّر والتقدّم الاجتماعي إرهابٌ بامتياز. إنّ تأمّل الأمور يكشف عن حقيقة بسيطة وجوهريّة: تعتبر الولاياتُ المتحدةُ عملاً إرهابيّاً كلّ عمل يزعج إسرائيل أو يضيرها، سواء أكان ذلك في الحاضر، أم في مستقبل طيّ الغيب. ولذلك تأتي صفةُ الإرهاب على من يجب استئصاله. واتّكاءً على مفهوم زائف للإرهاب، تمارس الولاياتُ المتحدةُ، بشكل متّسق، إرهابَ الدولة، كما يدلّل على ذلك تشومسكي في مقالة له في كتاب **لوم الضحايا**. وفي ذلك تمارس الولاياتُ المتحدة عنفاً مزدوجاً: عنفاً إعلاميّاً داخليّاً يعطي الزّيفَ شكلَ البداهة؛ وعنفاً خارجيّاً قاتلاً يعطي القتلَ شكلَ الإنقاذ.

إنّ وحدة المصالح، وبأشكال مختلفة ولامكتافئة، كما القرابة الإيديولوجيّة، تجعل من إسرائيل علاقةً داخليّةً في السّياسة الأمريكيّة وامتداداً أمريكيّاً متميّزاً بل بالغ التميُّز. يقول إدوارد سعيد في الصّفحة الثانية من كتاب **لوم الضحايا**:

> حتى الحرب العالميّة الثانية كانت أوروبا الميدانَ الخارجيّ الرئيسيّ للصّراع على فلسطين وأمّا بعدها فقد انتقلت السّاحةُ إلى الولايات المتحدة حيث اكتسبت إسرائيل سلطاناً مدهشاً وإنْ لم يكن مثيراً للاعتراض تشكّل إسرائيل، نسبةً إلى تعداد السكّان، أكثرَ بلدان العالم في التّاريخ تلقياً لمساعدات الولايات المتحدة فمن المقدّر أنّ كلّ مواطن إسرائيلي يحصل اليوم من الولايات المتحدة على ما يقرب من ١٤٠٠ (ألف وأربع مئة) دولار في السنة. أمّا كلّ فرد من أفراد الجيش الإسرائيلي فمدعوم بما لا يقلّ عن ٩٧٥٠ (تسعة آلاف وسبع مئة وخمسين) دولاراً في العام الواحد وجنباً إلى جنب مع هذه المبالغ السخيّة (وهي ـ بالمناسبة ـ تزيد كثيراً عن الدّعم الاتحادي في الولايات المتحدة للكثير من المواطنين المحرومين والمعوزين

Blaming the Victims Edited by E.W. Said and Chrisopher Hitchens Verso: London - New York 1988 p. 29 - 31

بالذّات) سار الدّعمُ السّياسي الذي يوازيه من حيث الأهمّيّة، هذا الدّعمُ الذي تتجلّى أعراضه بالتضامن الثّابت مع إسرائيل في كُلّ المنابر الدوليّة ذات الشّأن، بالاتفاق على التنسيق الاستراتيجي (وهو ما يفسّر إلى حدّ كبير بنيةَ التنظيم الخفي لما أصبح يعرف باسم إيران كونترا ـ غيت)، وبالطريقة التي يحسّ بها معظم مرشّحي المناصب الانتخابيّة في الولايات المتحدة بأنّهم مطالَبون بإعلان التأييد المطلق لإسرائيل حتّى يتمّ انتخابهم ويبقوا في مناصبهم. وعلى العموم فإنّ الدّعم الأمريكي لإسرائيل ضروري لاستمرار الدولة اليهوديّة التي باتت معتمدة اعتماداً كلّيّاً على الولايات المتحدة[٧]

الولايات المتحدة تمارس عنفاً مزدوجاً: عنفاً إعلاميّاً داخليّاً يُعطي الزّيْفَ شكلَ البداهة؛ وعنفاً خارجيّاً قاتلاً يُعطي القَتْلَ شكلَ الإنقاذ!

يعطي إدوارد سعيد، في هذا التصوّر، مداخلةً نظريّة/ سياسيّة، أو يعطي مداخلة سياسيّة صحيحة، لأنّ المعرفة عنصر داخلي في الممارسة السّياسيّة الصحيحة. وبسبب هذه العلاقة فإنّ إدوارد لا يخفي دهشته من واقع عربي يدور ملهوفاً حول الولايات المتحدة، ولا يكترث باحتياز معرفة عنها: «فالولايات المتحدة لا تدخل في الجو الثقافي العربي. وعلى حدّ علمي، فليس هناك أيُّ معهد في العالم العربي مخصّص لدراسة الولايات المتحدة، بل لا يوجد قسم مخصّص للدراسات الأمريكيّة»[٨]. ويتولّد عن هذا الجهل سياسةٌ قوامها الرّغبةُ المؤجّلةُ والاستعمارُ الثقافي. فتنتظر الرّغبةُ تحقُّقَها في مستقبل لا يصل أبداً، ويدور المستعمَرُ حول ذاته منتظراً إحسان البيت الأبيض وكرَم المدينة الفاضلة. يتمّ اختزال السّياسة العربيّة إلى الرّغبة والإحسان، أي إلى استسلام رمى بذورَهُ أنور السّادات وأثمر عربيّاً بعد رحيله. في هذه الحدود يمارس إدوارد أخلاقيّة المعرفة، ويتكئ على موضوعيّة المعرفة ليرشدَ الضالّ إلى الطريق الصّحيح. وصفة الضّلّيل توسّع من مرابعها، وتحتضنُ العربيّ والفلسطينيّ العربي. فالأخير ينتظر الإحسانَ ويخلط بين أرض فلسطين وحوار الغرف المغلقة؛ وهو حوار غريب كلّما امتدّ انحسرتْ أرضُ فلسطين، بل انحسرت الدروبُ التي كانت تسعى أن تصل إليها. يدخل الفلسطينيّ التقليديّ إلى التقليدي في السّياسة العربيّة، فيبذّر الموروثَ النّضالي ويُجَمِّلُ ملامحَ المسؤول الأمريكي. يقول إدوارد:

> والأمر الأكثر إيلاماً هو ما يجري في الساحة الوطنيّة الفلسطينيّة من ارتدادٍ نحو الاستكانة والخنوع تجاه «مهابة» الولايات المتحدة. . وأعجبُ من إحاطة بيكر (وزير الخارجيّة آنذاك) بهذه الهالة من قبل بعض القادة الفلسطينيّين. لم يخطر لأحد إنَّ «بيكر» بالرغم من جاذبيّته هو مسؤول حكومي عمل ويعمل حاليّاً، في الشرق الأوسط والعالم الثالث، ضدّ كلّ ما يطالب به الفلسطينيُّون: حقّ تقرير المصير، حقوق الإنسان، والعدالة الاجتماعيّة. . . هذا الموقف ينمّ عن جهل كامل بكيفيّة عمل الولايات المتحدة كجهاز. لقد استنتج بعضُ الفلسطينيّين، ممّن لم يقطنوا الولايات المتحدة ولم يقرأوا عنها، أنَّ الولايات المتحدة نظامٌ ديكتاتوري، وأنَّ ما يريده بيكر لابُدّ أن يفعله[٩]

يقدّم سعيد صورةً عن جهاز الولايات المتحدة وصورة عن الجهل الفلسطيني الرّسمي به، مشيراً ولو من بعيد إلى تقليديّة الجهاز الفلسطيني، الذي قَبْلَ أن ينكر دورَ المعرفة، ينسى المضمونَ التحرّريَّ للقضيّة الفلسطينيَّة والوسائلَ المتعدّدةَ التي تفضي إلى التحرّر. وفي حقيقة الأمر، فإنّ الجهازَ الفلسطينيّ يقرأ أوهامه في قراءته الغائبة للولايات المتحدة، ويسطّر معاييرَه التقليديّة فوق جسم سياسيٍّ أمريكيّ لا يراه. فالجهازُ الديكتاتوري لا يحيل على الواقع الأمريكي بل على تصوّرات سياسيّة عربيّة أدمنت الديكتاتوريّة: حيث السّياسة طقسٌ، وعارفُ الأمور وحيدٌ، وعن الفرد الحاكم تنبثق الرّغبةُ وإليه تعود عَطْشى؛ غير أنّ رغبة الفرد المتحقّقة أبداً هي بقاؤه فرداً لا شريكَ له. من هنا يتعظّمُ الفَرْدُ ويكتسب «بيكر» هالةً غيرَ جدير بها. وهذا ما يبرّر جملةَ إدوارد: «كان التوجّه الدائم هو التفتيش عن شخص «مهمّ» أو يشغل منصباً مهمّاً (وهو دائماً أبيض) من أجل التقرّب منه واحتمال الاستفادة منه لاحقاً»[١٠]. يعطي إدوارد ملاحظات سريعةً تاركاً العقل النقدي يملأ فراغ الكلام. فإيديولوجيا الفرد المقدّس والمرجع الوحيد لا تفضي إلى شيء خارج الخسارة. ذلك أنّ قضيّة الفرد المقدّس هي تأمينُ استمرار تقديسه في استمرار وجوده. يتحوّل الوطن إلى قضيّة ثانويّة ويصبح المركزي الحفاظ على القائد الرّمز. وحين يقول سعيد: «ليس عندنا مانديلا مع الأسف» فإنّه لا يرسل رسالة احترام إلى قائد وطني وتحرّري كبير جدير بالاحترام فحسب، وإنّما يحجّب أيضاً احترامه عن «قادة» يحوّلون النضال الوطني المتراكم إلى حصىً. والحصاد الأخير خيبة مترامية ومتلاحقة:

> ذهبت القيادة الفلسطينيّة أبعد من ذلك في التنازل عن حقوق دافعنا عنها طويلاً. . . والحقيقة أنّ النتائج التي وصلنا إليها تناسبُ الإسرائيليين تماماً، لأنّ كلمة «سلام» تعني لهم شيئاً مهمّاً. . أمّا بالنّسبة إلى الفلسطينيين، فإنّهم عندما يضعون تواقيعهم على وريقة فإنّ السّلامَ بالنّسبة لهم يكون مفهوماً ومميّاً غايته الأساسيّة تشريعُ سيطرة إسرائيل على الأرض[١١]

(٧) المرجع السابق، ص ٢.

(٨) الغارديان البريطانية ٣/٩/١٩٩٢؛ والترجمة العربيّة في مجلّة الحرّيّة ١١ ـ ١٧ تشرين أوّل ١٩٩٢ العدد ٤٧٣ (١٥٤٨).

(٩) المرجع السابق.

(١٠) المرجع السابق.

(١١) المرجع السابق.

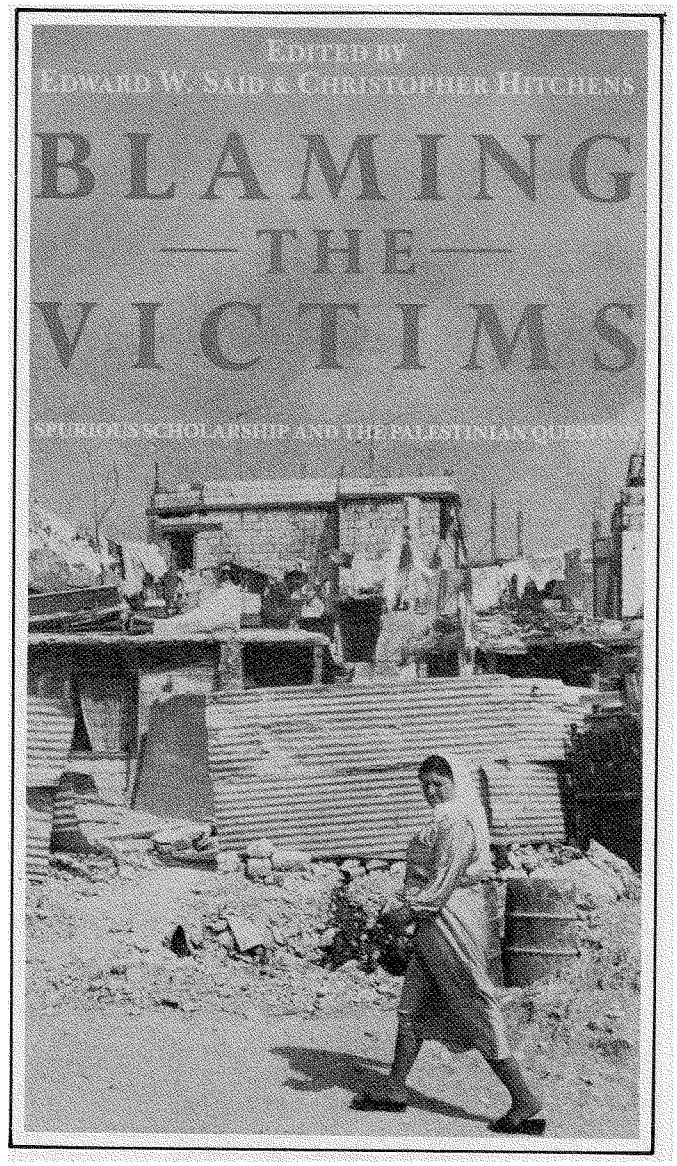

سعيد: لماذا تُلامُ الضحيّة في الدراسة الأكاديميّة؟

يقدّم سعيد مداخله في السياسة ويكون واضحاً وموضوعياً. لكنّه يطرح أوّلاً سؤالاً حاسماً عن معنى الهويّة الوطنيّة. فالقبول بشرعيّة السيطرة الإسرائيليّة يذري الهويّة في الاتجاهات الأربعة. وفي الوضع الفلسطيني ـ والخصم نصير للظالم وظهير للظلم ـ فإنَّ الهويّة تكون تحرّريّة وثوريّة أو لا تكون، وعليها أن تكون ما تعارفت الثّقافة الكونيّة التحرّريّةُ عليه. ولذلك فإنّ إدوارد في تقديمه لكتاب **لوم الضحايا** يرى في الكفاح المسلّح فعلاً مشروعاً وكونيّاً تعارفتْ عليه الحركاتُ القوميّة المقاومةُ للاضطهاد؛ فالأخير يستدعي المقاومة، ولا هويّة للمقموع بدون فعل مقاوم:

> **يجب أن لا تموت القضيّة الفلسطينيّة. ليس عندنا مانديلا، مع الأسف، ولكنْ عندنا تأثير كامن موجود في العالم العربي والعالم الثالث وأوروبا وفي الولايات المتحدة نفسها. والأهمّ أنَّ الانتفاضة قد أثبتت أنّنا شعب شجاع ومبادر قادر على التّحرّك على نطاق شعبي واسع(١٢).**

* * *

تعيدنا حالةُ إدوارد سعيد إلى ذلك الاصطلاح الذي لا ينقصه الالتباس، وأعني به: أخلاقيّة المعرفة، إذ المعرفةُ تنقل حاملها من مواطن الظّلال إلى ربوع النّور، ومن مواقع الغبطة إلى أرض القلق، ومن طقوس القراءة والكتابة إلى أتون الحياة. يخلع إدوارد لبوسَ الأكاديميّة ويطلق قولاً واضحاً يطالب بالمواجهة والثبات والمقاومة وتوحيد المواضيع وأسمائها.. وأخلاقيّة المعرفة مصطلح ملتبس، لكنّه يوقظ من الأسئلة ما يشاء، بل يحمل الالتباس إلى تعبير شائع ومبذول: «المنبت الطبقي» الذي يفقد عصمتَهُ في تَرَهُّل «ابن المخيّم» الذي أصبح «قائداً» يرى في فوز بوش انتصاراً لـ «عمليّة السّلام» ويبصر ـ وهو الذي لا بصيرة له ـ في نجاح رابين نجاحاً للإرادات الطيِّبة. ولئن كان في منطق المعرفة الموضوعيّة ما يحرّر المثقّف من قيود المنفعة، فإنَّ في منطق البيروقراطيّة الجاهلة ما يقيّد السّياسيّ بمسلسل من الحساب فقيرٍ. وهذا الفرق يدفع بالمثقّف إلى فضاء اليوتوبيا، ويدفع بالسّياسي ـ إنْ استطاع ـ إلى اغتيال كلّ زمن يعكّر صفوَ الحاضر.

«ليس عندنا مانديلاّ، للأسف، ولكنْ عندنا تأثير كامن موجود في العالم... والانتفاضة أثْبَتَتْ أنّنا شعبٌ شجاعٌ ومبادر».

إنّ المثقّف يعترف بسلطة التجربة، فيحترم التجربة ويضع ذاته جانباً. وأمّا السّياسي فيضع التجربة في ذاته: فهو سابق على التجربة ولا يقبل بها. والتجربة سلطة، والسياسي التقليدي لا يرى سلطة خارجه. ولذلك فإنَّ الدّفاع عن فلسطين يستلزم أوّلاً الدّفاعَ عن مفهوم التحرّر: فلا معنى لفلسطين، ولا إمكانيّة لاستعادتها، إنْ كان الفعل السّياسي المنشغل بها نفياً للإنسان والتحرّر، أي نفياً للفعل الشعبي الجماعي المبدع الذي يتجاوز الأفرادَ والرؤوس.

يكتب تزفيتان تودوروف في كتابه الجميل **فتح أمريكا** واصفاً معنى الموت لدى الهنود السطورَ التالية:

> إنَّ الموت ليس كارثةً إلاّ من منظور فرديٍّ بشكلٍ ضيّق، في حين أنَّ الفائدة المستمدّة من الخضوع للقاعدة التي أرستها الجماعة تُعَدُّ من وجهة النظر الاجتماعية أثقلَ وزناً من فقدان الفرد. وهذا هو السبب

(١٢) المرجع السابق.

في أنّنا نرى أنّ مَنْ يجري تقديمُهُمْ قرابينَ، يقبلون قدَرَهُمْ إنْ لم يكن بسرورٍ فبدون يأس على أيّة حال. وينطبقُ الشيءُ نفسه على الجنود في ساحة المعركة. إنّ دمهم المراق سوف يسهم في إبقاء المجتمع حيّاً[١٣].

***

إنْ كانت الوقائعُ تُؤكّد صحّةَ الأقوال أو تهافتَها، فإنّ اتفاق غزّة ـ أريحا يؤكّد صحّة المواقف التي أخذ بها إدوارد سعيد، في أكثر من اتّجاه. فهي تعلن عن بؤس سياسة المؤسّسة الفلسطينيّة الرسميّة، وعن فقر المثقّف المرتبط بها وانتهازيّته، وتكشف ـ قبل كلّ شيء ـ عن موضوعيّة المعرفة الأخلاقيّة التي مارسها إدوارد سعيد.

يؤكّد «سعيد» العقمَ التاريخيَّ للمؤسّسة الفلسطينيّة وضرورةَ البحث عن قيادةٍ بديلة. ويكشف عن تهافت الثقافة الفلسطينيّة الرسميّة.

فلقد جاء الاتفاق انعكاساً لغطرسة إسرائيليّة تغيِّر الجزئيّات وتحتفظ بالمنظور الأساسي شاملاً؛ فلا تقدِّم حلاً للقضيّة الفلسطينيّة، بل تحلّ مشاكلها الذاتيّة في علاقتها بالقضيّة الفلسطينيّة. ففي حدود الحكم الذاتي المجزوء يدير الفلسطينيُّ الرسميُّ قضاياه اليوميّة، من وجهة نظر المصلحة الإسرائيليّة، على مبعدة من الاستقلال وعلى فراق معه... مع فرق جوهريّ: فالقمع الذي كانت تمارسه القوّات الإسرائيليّة ضد الفلسطينيّين، ينتقل في اتفاق غزّة ـ أريحا إلى شرطة الحكم الذاتي. وهذا ما يجعل شرطةَ القمع الأمرَ الواضحَ الوحيد في اتفاقٍ مليءٍ بالالتباس والغموض والارتباك. وتكشف مساحةُ الغموض، رغم صناعة الكلام المترهِّلة، عن هوس مؤسّسة بالحفاظ على كيانها الذاتي، وعن فقر مديد في التعامل مع الوقائع وإدارة الصراع السياسي؛ الأمر الذي يعطي الاتفاقَ صفةَ الصفقة، التي ترضي مؤسّسةً متهالكة، ولا تلبّي من المشروع الوطني شيئاً. وحقيقة الأمر، أنّ الحلَّ الظالم لا يتأتّى عن ظروف موضوعيّة سلبيّة ـ وهي موجودة بشكل نموذجي ـ بقدر ما يأتي عن إدارة سياسيّة تحوّل الصراع في علاقاته المتعدِّدة والمعقَّدة إلى علاقات فرديّة، وتختزل تاريخ الصراع الطويل إلى الزمن الذاتي لأفراد الإدارة السياسيّة. ويكشف هذا الاستبدال عن العقم التاريخي للمؤسّسة الفلسطينيّة المسيطرة، وهو عقم متواتر ومتناتج، ظهرت ملامحه قبل الخروج من بيروت، وانكشف عارياً بعد الخروج منها. وإذا كان بالإمكان الحديث عن المأساة الفلسطينيّة بالركون إلى مراجع متعدِّدة، فإنّ فداحة المأساة تتجلّى في الفرق القائم بين طبيعة القضيّة الفلسطينيّة (وهي مركّبة وصعبة) وطبيعة القيادة الفلسطينيّة، التي تحوّل المعطيات الصعبة إلى وقائع رخوة وبالغة السذاجة. ولعلّ هذا الواقع يعطي الدفاع عن القضيّة الوطنيّة بُعداً مزدوجاً: يستظهرُ البُعد الأوّل في الدفاع المبدئي عن قضيّة عادلة عميقة الجذور، ويتكشّف البُعْدُ الثاني في الدعوة إلى قيادة جديدة، ترتفع في مفاهيمها وممارساتها ومنظورها إلى مقام القضيّة الوطنيّة الفلسطينيّة.

يؤكّد موقف «سعيد»، في مستواه الأوّل، العقم التاريخيّ للمؤسّسة الفلسطينيّة وضرورة البحث عن قيادة بديلة. ويكشف، في مستواه الثاني، تهافتَ الثقافة الفلسطينية الرسميّة. ففي الوقت الذي كان فيه إدوارد، ومنذ سنوات، ينقد سياسات فلسطينيّة قائمة على الارتجال والعصبويّة الفقيرة، كان المثقّف الفلسطيني الرسمي يتابع طليقاً حديته المجرَّد عن الانتفاضة والنصر والشرعيّة، هذا. إنْ لم يتحوّل إلى أداة إعلاميّة ذلولٍ تستخدمها القيادةُ وفقاً للظروف والأحوال. ولذلك لم يكن غريباً أن يكون المثقّف السلطوي سبّاقاً في ترويج الأضاليل والأوهام: فيأخذ المثقّف ـ وقد باركته السلطةُ ـ على عاتقه، نزعَ صفةِ العنصريّة عن الصهيونيّة، والدعوة إلى الحوار مع المثقّف الإسرائيلي «المتطلّع إلى السلام»، والبحثَ في التراث الشعري العربي عن ضرورة «السلام» ومبرِّراته. وكان المثقّف الفلسطيني، في دوره هذا، يعيد إنتاجَ الثقافة السلطويّة، في أكثر أشكالها خراباً وقتامة؛ كأن لا وجودَ للمثقّف إلّافي علاقته بسلطةٍ هي مبرِّر وجوده ومسوِّغ وظيفته. وهذه الوظيفة الاستعماليّة هي التي جعلت «البوح السائب» يطفو عالياً في المناسبات، وألزمت «المثقّفَ الملتزم» بالصمت في اللحظات التي تحتاج إلى قولٍ وموقف. كأنّ المثقّف هذا، وقد صاغته المناسبات ونسجته، لا يرى القولَ إلّا في ريعه الأكيد؛ فإنْ مازجه شكٌّ بالربح لاذ بالصمت والسكوت. ولذلك يدور المثقّف حول ذاته ساكتاً، والانتفاضة في أوجها والتصريحات عن إمكانيّة بيعها متواترة. فإنْ ضلّتْ طائرةُ مسؤولٍ في الصحراء، في ليلة طويلة وحزينة، خرج هذا المثقّف عن صمته، باحثاً عن قولٍ أوّل يبدد الحزن المحتمل. وفي حدودٍ كهذه، فإنّ نصّ إدوارد سعيد يفضح نصوصاً أخرى، بقدر ما يستأنف نصوصاً على صورته: يستأنف نصَّ المثقّفِ المسؤول، الذي يميِّز الوهم من الصحيح؛ ويفضح نصَّ المثقّف ـ الوسيط، الذي يمارس تجارة الكلمة في وسطٍ يختلط فيه السياسيُّ برجل الأعمال إلى حدود التماهي.

لقد سمح الوضوحُ لإدوارد سعيد أن يتابع قوله قبل اتفاق غزّة ـ أريحا وبعده. فَمَنْ كان واضحاً في موقفه من حدثٍ قادم، يستأنف وضوحه بعيداً عن المفاجأة والارتباك؛ وأمّا من أدمن نصفَ القول في أنصاف الحقائق، فيستجير بصمته القديم ويتدثّر بالكآبة. وحقيقة الأمر أنّ المفاجأة، في حدود العقل الموضوعي النقدي، لا وجود لها. فإدوارد سعيد موضوعي في تعامله مع القضيّة الفلسطينيّة لأنّه موضوعي خارجها أيضاً بدءاً بفضح المؤسّسة الاستشراقيّة وصولاً إلى هتك أقنعة الثقافة الإمبرياليّة. ويمكن القول إنّ إدوارد سعيد الذي اختبر «عالم الحضارة» من داخله لا ينتظر دهشةً ولا مفاجأة؛ وأمّا المثقّف الريفي، الذي كوّنته المؤسّسةُ الفلسطينيّة، فإنّه يحوّل قضيّته الوطنيّة إلى سُلَّمٍ يرتقي فيه إلى شوارع الدهشة والغرابة.

(١٣) تودوروف، فتح أمريكا، سيبا للنشر، القاهرة ١٩٩٢، ص ٧٥